فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

# ٢٤ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

## الناحية السلبية من مذهب نيتشه

# الانسان

## للأستاذ خليل هنداوى

إن انتشار مذهب الشفقة — فى هذا الجيل — دليل على أن الانسان أصبح يزداد خوفه من الألم . أصبح متراخياً ، مختثاً يخشى من كل ما يعكر عليه طمأنينته ووجوده ، لا يحمل الفرار من الألم وحده ، بل لا يستطيع أن يتصور فكرة الألم عند الآخرين ، حتى لا يقدر أن يؤلم الغير عند ما يطالب العدل منه ذلك باسم العدل . الرحيم يبسط شفقته حتى على المجرمين والسيئين « وقريباً يأتى ذلك اليوم الذى يتراخى فيه المجتمع الانسانى ويقعد عن معاقبة المجرم الذى يضره . لماذا يعاقب المجرم ؟ إن المعاقبة يرى فيها ضرباً من ضروب الجور . فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه . أليس فى إقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء ما يُغنى؟ فلماذا القصاص إذن ؟ إن القصاص يضنى . أما المثل الأعلى الذى يطلبه « وحش القطيع » فهو جزء ضئيل من السعادة المحققة لكل إنسان ، يرافقه شىء ضئيل من الألم . إن الشقاء — عندهم — شىء يجب محقه

إن نيتشه — فى هذا الفصل وهو خير فصوله — يعتقد أن الجبن والخوف من الألم هما من الصغار والحقارة بمكان ؛ إن الألم هو فى الحق معلم الانسانية وهو الذى يحقق أحسن نماذج شريفة . « أنتم تريدون سحق الألم ونحن نريد أن تكون الحياة أكثر قسوة وأشد رداءة . إن الكائن السامى الذى تفهمونه ، نرى فيه « غاية » ولا نرى فيه « نهاية » . نرى فيه مرحلة يبدو الانسان من ورائها شيئاً حقيراً مزرياً حتى يدرك آخر عهده ، بلى ! فى مدرسة الألم الكبير ، فى مدرسة هذا المعلم القاسى يتم الانسان مراحل تطوره ، أليس التضييق على هذه النفس الساقطة تحت أعباء الشقاء يزيدها قوة وصلابة ! أليست هذه الرجفة التى تنتابها بازاء الحادثات الكبرى تزيد قوة احتمالها وصبرها وثباتها وتحويل المصائب إلى دروس مفيدة . كل هذا ألم يؤول بالنفس — فى مدرسة الألم — إلى خروجها بهذية نقية ؟ إن فى الانسان « خليقة وخالقاً » فى الانسان شىء هو مادة وطين ووحل ، لا شعور له ، فضاء ، وفى الانسان شىء هو خالق مبدع ، ونقاش ، بهجة فنان وصلابة ومطرقة ، أأدركتم هذه المقارنة ؟ ألا تزال شفقتكم تذهب إلى مافى الانسان من مادة ينبغى سحقه وحرقه فى النار حتى يتطهر ، وإلى كل ما يجب عليه أن يتألم بالضرورة ؟

وشفقتنا هل تدرون موقعها ! إنها شفقة علينا حين نقاتل شفقتكم كما نقاتل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن ، وهكذا : شفقة ضد شفقة

ويرى نيتشه أن المذهب الديموقراطى علامة من علامات الانحطاط ، لأنه مهما تباعدت أصوله وتبدلت مناهجه متفق مع المذهب الدينى ، فى الشريعة المسيحية وفى ديانة الألم الانسانى يتمثل ما يتمثل فى مذهب المساواة . . . مقت الضعيف للقوى ، وجنوح قوى إلى حياة لا ألم فيها . إن المسيحية تجعل الناس متساوين أكفاء أمام الله ، وتعدهم بسعادة كاملة فى الحياة الثانية ، كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين أكفاء أمام الشريعة والحق ، وعملت على تحقيق سعادتهم فى هذه الدار ، ورجت أن تخلق مجتمعاً عوت فيه التفاوت ويكون أهله فى الحق سواء ؛ لا يتمتع أحدهم بما لا يتمتع به آخر . حيث لا أمر ولا طاعة ، ولا استبداد ولا استئثار ، ولا سيادة ولا عبودية ، ولا غنى ولا فقر

هذا هو المثل الذى تنهض اليه الديموقراطية ، ويدعو اليه أصحابها على اختلاف مللهم ونحلهم ... كلهم يعملون على رفض كل سلطة ذاتية ، ليملكوا لأنفسهم كل امتياز . وكلهم يؤمنون بأن كل فرد يقدر بل ينبغى له أن يجد سعادته الخاصة فى سعادة المجتمع بأسره ، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها باشفاق كل فرد على المجتمع ، وبالمحبة العامة السائدة . هذه الأفكار غرست فى عقول أبناء الحاضر غرساً متيناً ، حتى أصبح لا يقوم — فى أوروبا — رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة . ولن تجد فى عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذى كان ينضوى تحت لوائه الألوف ، يمشى فيمشون لا يسألونه أين يمشى ، وهؤلاء من يأبيهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم إلا قليلا ، لأن شريعة العبيد رافعة رأسها فى كل مكان ، فهم يستمدون

الحكم من هذه الشريعة ، لا يحيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفا ، فهم خادمو هذا البلد ، هم الجلادون فيه ، وهم منفذو القانون (١)

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة ، وهو يرى أن المرأة ليس لها حق المساواة مع الرجل ، دل على ذلك الحب الذى تنغمس فى حمأته الكائنات . فوظيفة الحب ـ عند الرجل ـ غيرها ـ عند المرأة ، ومكانة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل . فالحب عند الرجل إنما هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضيقة . أما الغريزة العنيفة فيه فهى غريزة القوة ، هذه الغريزة التى تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقدر عليه . ان مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية فى سبيل تحقيق شخصيته هى مايتطلب منه عصره وجهوده . فاذا أسلم نفسه إلى الحب ، ووهب حياته وأفكاره للمرأة التى يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً ، تسلخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق

يقول زرادشت « كل ما فى حياة المرأة هو لغز ، وكل ما فى المرأة له حل واحد هو التوليد » فالحب إذن هو أبرز ما فى حياة المرأة ، وإنما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل دور « الأولى » فى الحب ، وأن تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذى تصطفيه ، وأن تفتش عن سعادتها فى الانسلاخ عن ارادتها الخاصة . يقول زرادشت : إن سعادة الرجل « أنا أريد » وسعادة المرأة « هو يريد ! » إن المرأة التى تحب ينبغى لها أن تسلم نفسها إلى الرجل الذى يجب عليه أن يتقبل هذه المنحة . . . هذه هى شريعة الحب التى تجعل بين الرجل والمرأة حاجزاً حائلاً وفرقاً بعيداً . خلقت المرأة للحب والطاعة ، وويل لها إذا سئم الرجل من ظفره عليها وألفى أن هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه ، وركض يسعى وراء غرام جديد . ينبغى للرجل أن يحكم وأن يحرس . يجب عليه أن يكون قادراً على أن يحيا حياتين ، ليحقق سعادته لنفسه ، وسعادة من وقفت عليه رجاءها . ولكن تعساً له إذا ظل تحت أثقال هذا العمل ، وإذا أدرك حبه وعجز عن اضرام نار هذا الحب ، فان هذا الحب ليحور بغضاً ، وتنقلب المرأة به عليه ، حتى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار

ولكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء . . . فالجيل الذى قدس العبد يجرب أن يؤله المرأة . . . لا يرى فى المرأة عنصراً سامياً يستطيع أن يساعد الانسانية فى تقدمها . الرجل وحده يتعلق عليه ذلك لأنه السيد ، وهو السيد ذو القوة الراجحة والعقل الأرجح والقلب الأمثل والارادة الأشد نفاذاً . والمرأة قد تكون نبيهة ، ذكية تضارع الرجل نباهة وذكاء ، تتفهم المسائل وتفصل أمهات الأمور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولكن طبيعتها أقل عمقاً وأقل غنى من طبيعة الرجل . إنها تبقى دائماً طافية على سطوح الأشياء . إنها شىء لا يذكر ... إنها مسكينة مزهوة بنفسها

يقول زرادشت « يُعلم الرجل للحرب ، والمرأة لتسلية المحارب ... وما دون ذلك فهو جنون » ليست المرأة سماً وإنما هى لعبة سريعة العطب لكنها ثمينة وقد تكون خطرة . هى رقة فى طبع الرجل . تغدو خطرة مرعبة حين يضرمها الهوى والحب والبغض ، لأن طبيعتها لا تزال أكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الأولى . ففيها رقة ملمس النمرة وفظاعة مخالب النمرة ، فيها طبيعة فانية ثائرة ، وأهواء جامحة لا تعرف منطقاً ، ورغائب قلقة . . . وكل هذا يجعل المرأة فقيرة إلى سيد يكبح جماحها ويقودها ويميت فيها جنونها ، حتى إذا استشعرت الرجل أمست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتها وتبرجها وفضيلتها اللابسة ألف ثوب . فيرو ـ إذ ذاك ـ قلب سيدها الاشفاق عليها ، الاشفاق الكثير لأنها أكثر عرضة للألم . إنها مفتقرة إلى حبه ، وقد قضى عليها بأن تكون أقل الخلائق وهماً

ان نيتشه ينقم على المرأة التى تريدان تتحرر من قيودها ، وتهجر احترامها الرجل وتزعم بأنها قرينة مساوية ، تريدان تدخل معه فيما تطلب الحياة من نضال . ان نيتشه يبغض النساء اللواتى يمشين فى صفوف الرجال ، لأنهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن

(١) ولعل نيتشه صدق فى نبوءته هذه ، فقد علت النقمة على شريعة العبيد بعد أن تزعزعت فضائلها ، وخابت تعاليمها أيما خيبة ، فعلت الفوضى حيث استأثرت الديمقراطية ، وزاد الشعب حيث استغرق الناس فى الحرية ، فهب منهم من لا يؤمن بنصف الحاكم أو بنصف القائد ، وحصر السلطة فى نفسه ، ولم يترك لممثل الشعب إلا ظلا لا يغنى ولا ينفع ، فحيثما نظرت تنظر ديكتاتورية عاتية عنيفة ، ضمنت للشعب أن تقوده إلى أنهار من عسل مصفى ، وجداول آمال كان ينكرها إذا هجست بها نفسه ... وهل أهول من هذه الديكتاتورية التى نشأت فى وطن نيتشه ؟ وكأنى أبصر هذه الديكتاتورية تقتفى أثر تعاليم نيتشه فى الاصطفاء والسيادة ... كان نيتشه يبصر بفلسفة عنيفة انسانية ، يرحب « بالسوبرمان » أينما كان ، فى الغرب أو فى الشرق ، ولكن رجال شعبه حوروا هذه التعاليم بعض التحوير ، فجلوا من فلسفة نيتشه فلسفة قومية ، يريدون أن يكون منهم «السوبرمان» أو قل يريدون أن تكون أمتهم «سوبرمان» بقية الأمم ؟ فهم يضطهدون المنحطين والعناصر التى لا تؤمن بالروح الجرمانية ... وويل غداً لكل ديكتاتورية لا تطفئ جوع السيد